حجاب الأُلفة

نفس الإنسان بطبعها تتشوَّف للغريب، وتتطلع للخفي، وتذهل عن المألوف وتغيب عن مزاياه، حتى وإن كان هذا المألوف مليئا بالأسرار، فإنها كلما سَبرَت غورًا من أغواره وكشفت سِرًّا من أسراره لم يطل الوقت حتى تعتاده ويخفت بريقه.

ذكر الإمام ابن الجوزي رحمه الله في صيد خاطره أن الأفضل في كثير من الأحيان ألا يعلم المرء الحقائق التفصيلية لبعض الأشياء، ويقتصر على علمها المجمل، وقال ضمن حديثه:

«ولو قال قائل: ما الصواعق؟ وما البرق؟ وما الزلازل؟ قلنا: شيء مزعج، ويكفي.

والسر في ستر هذا: **أنه لو كشفت حقائقه، خف مقدار تعظيمه.**

ومن تلمح هذا الفصل، علم أنه فصل عزيز».

ولذلك تجدنا -رغم الكشوفات العلمية الحديثة- لا تزيدنا الآيات الكونية إيمانًا، كما كان يزداد الأولون بها إيمانا -على بساطة علمهم بأسرارها-.

وهذا هو حجاب الأُلفة، وغشاوة ظن الإحاطة بأسرار كل شيء، وهو من أعظم أدواء القلوب.

وإلف القرآن لا يخرج عن هذا الداء .. كتب ميمون بن مهران حين كتب إلى يونس ابن عبيد: «عليك بكتاب الله عز وجل فإن الناس قد بهوا به واستخفوا أو استحبوا عليه الأحاديث أحاديث الرجال».

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: «يقال: بهأت بالشئ، فأنا أبهأ به، وكذلك بسأت به وبسئت: إذا أنِست به.

وإنما أراد ميمون: أنهم قد أنِسوا به حتى ذهبت هيبته من قلوبهم، وخرج إعظامه منها، **وكذلك كل شئ أنست به فإن هيبته تنقص من القلب**».

والقرآن هو القرآن، لم يتغير، ولم تنضب أسراره ولم يُحط بعلم ما فيه أحد، غير أن الذي تغيَّر هو القلب، فضرب بين القرآن والاتعاظ به سورا .. لما قدم أهل اليمن زمان أبى بكر وسمعوا القرآن جعلوا يبكون، فقال أبو بكر: **"هكذا كنا، ثم قست القلوب"**.

والبوابة الأولى لتدبر القرآن: إزالة الأُلفة بيننا وبينه، وذلك بالإقبال عليه بقلب جديد خالٍ إلا من خشية الله، مفتقر إلى كل هداية من هداياته، موقنٌ بالعجز عن الإحاطة بإسراره، فحينها تتنزل الهدايات وتقشعر الجلود وتسجد القلوب لبيّناته.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾.

فشرط الانبهار بالقرآن: تحقُّق خشية القلب، وهذه هي العتبة الكبرى للترقّي عن حضيض الأُلفة، ومن ارتقاها فقد باشر بقلبه نور القرآن، يضيء في أرجائه.

قال القاضي عياض: «وأما المؤمن فلا تزال روعته وهيبته إياه مع تلاوته تُوليه انجذابا وتكسبه هشاشة، لميل قلبه إليه».

ولا يقتصر الأمر على العالم بمعاني القرآن، المتعمق في دلالاته، بل يكفي في قارئه: صدق إقباله، وشدة افتقاره، حتى وإن كان خلوًا من رسوم العلوم، يقول القاضي عياض أيضا: «قال: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل﴾ الآية، ويدل على أن هذا شئ خُص به؛ **أنه يعتري من لا يفهم معانيه ولا يعلم تفاسيره**، كما روي عن نصراني أنه مر بقارئ، فوقف يبكي، فقيل له: مم بكيت؟ قال: للشجا والنظم».

وأنت إذا تأملت أكثر أسباب الغفلة عن القرآن رأيتها راجعة إلى هذا الداء، داء الأُلفة، نهذُّ القرآن كهَذِّ الشِّعر، ونسمعه سماع اللاهين عنه، وصار أكثر اتصالنا به من باب العادة، فلا نعد له قلوبنا، ونطهر له صدورنا فيحسن استقبالها لمعانيه!.

وقد قال عثمان بن عفان رضى الله عنه: "لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله".

قال ابن القيم: «فالقلب الطاهر، لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث، لا يشبع من القرآن، ولا يتغذى إلا بحقائقه، ولا يتداوى إلا بأدويته».